الفصل الثاني عشر

القوي النفسية في الأطفال

رأينا أن نردف هذا الفصل بفصل في القوي النفسية في الأطفال"نشرته مجلة البيان الغراء لرئيس إنشائها الأستاذ العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي"، وهو بما حواه من الدلالة علي نشأ الشعور والقوي النفسية في الأطفال، ومواعيد ظهورها ونمائها ينطبق انطباقًا تامًا علي موضوع الأبحاث التي نحن فيها؛ فلذلك آثرنا نقله برمته دون حذف منه، أو زيادة عليه وهو:

"لا شيء أحق بالإنسان وأليق به من معرفته حقيقية نفسه، ولا شيء أكثر امتناعًا عليه وأبعد عن مرأى بصره من إدراك ما وسعه هيكله من القوي العجيبة، والتراكيب الغريبة؛ ولذلك قالوا: الإنسان أشياء كثيرة، فلكثرة ما هو به يعجز عن إدراك شيء واحد مما هو به.

لا جرم أن هذا الهيكل العجيب والبناء البديع الذي هو آية الله في خلقه مؤلف من دقائق لا يحصيها العد، ولا يحيط بها الإدراك، كل منها يقوم بعمل خاص، ويستقل بحياة خاصة، وينفعل بالقوى الفاعلة في جميع الأجسام، وهذه الدقائق علي كثرتها، وتباين أشكالها، واختلاف أوضاعها، وتنوع العناصر المكونة هي منها تتضامّ فتتكون منها الأعضاء، وتتكافأ في القيام بما أرصدت له من المنافع التي تضمن لجملتها انتظام الأعمال الحيوية إلى الأجل الذي أتيح لها. فمعرفة الإنسان نفسه من حيث هو مركب علي كمال خلقه، وتمام خلقه لا تتهيأ الإحاطة بها لعاقل لما يقف دونها من العقبات المنيعة، ولاسيما في ما

اختص منها بالنفس الناطقة التي هامت العقول في أودية البحث عنها، والتطلع إلى غوامض أسرارها، فهي المشكلة المعضلة التي ما برح الطبيعيون، والفلاسفة، والمتكلمون يتجاذبون أطراف حلها، كل فريق علي نحو ما فتح عليه مقدار عمله وثقوب ذهنه.

لا جرم أن النفس البشرية مع ملازمتها لبدن الإنسان وحلولها فيه من ابتداء تكوينه إنما تعرف بالقوى التي تصدر عنها، والظواهر التي تُبديها، ونحن إنما نبحث عنها الآن بحثًا عمليًا في أبسط أحوالها منذ تجليها علي هذا الكائن الحي (وهو جنين في أحشاء أمه) إلى ما بعد ميلاده بثلاثة أشهر، مقتصرين في ذلك علي ما قل ودل من غير تعرض للمذاهب الفلسفية، والمغالطات الجدلية. إذًا ليس من غرضنا الجولان في فيافي الخيال، ولكننا إنما نؤثر تقرير الحقائق العملية الثابتة ببرهان المعاينة والامتحان.

ذهب أرسطو إلى أن النفس تظهر في الجنين بعد أربعين يوم من حمله، وعليه جمهور المتقدمين: ومنهم حكماء العرب، والقديس توما اللاهوتي[1].

ومن الثابت اليوم أن الجنين يتحرك في الأسبوع الثامن حركة رخوية، فيتخذ الحبل السري الشكل اللولبي، والدليل علي أن هذا الشكل من حركته أن الحبل المذكور لا يكون كذلك في الكثيرات من الأجنة في الحمل الواحد؛ إذ لا يبقى لأجنتها مجال للحركة، وربما تحرك حركة اختلاج وارتعاش منذ الأسبوع الرابع (وهو وقت تكون الأطراف). ولا تشعر الأم بارتكاض الجنين إلا منذ الأسبوع الثامن عشر (وهي حركة تزداد بمقدار نمائه حتى يولد)، وربما دلت علي

---

[1] زعم أرسطو أن الجنين يكون ذا نفس في اليوم الأربعين إذا كان ذكرًا, وفي اليوم الثمانين أو التسعين إذا كان أنثى, وتابعه في ذلك القديس توما اللاهوتي.

بعض المؤثرات الخارجية كالإحساس بالبرد. أما حقيقة هذه الحركات، وهل هي صادرة عن غير وجدان، أو هل يجوز أن تظهر قوى النفس قبل الولادة؟ فالباحثون في منافع الأعضاء علي أنها قسرية من حيث طبيعتها، منعكسة من حيث مصدرها، والمتكلمون يقولون أن الجنين يشعر باللذة والألم، ولا ريب في أن ذلك لا يكون إلا عن وجدان، فهو ذو نفس كاملة. ولا ينكر أن الوجدان موجود حينئذ في أبسط أحواله، وإنما هو أثري يأخذ في النماء منذ ذلك الحين، ولا يزال يزداد ويتكامل بعد الولادة حتى يصير الطفل قادرًا علي تمييز نفسه عن غيره من الكائنات. وعليه يكون مبدأ القوى النفسية الفعل العصبي المنعكس، حيث لا يكون للعقل والإرادة سلطان، ولو كان للحركة الصادرة عنه علة غائبة مقصودة. إذًا الانفعال لا يكون بدون فاعل.

ثم أن الجنين يولد لتمام حمله طفلاً لا قوام له في ذاته؛ لأنه لا يستطيع أن يستقل بنفسه متحركًا حركة يتوصل بها إلى جلب النافع ودفع الضار، وحواسه لا تعينه علي معرفة الموجودات مما حوله، فلا تتطرق بها المحسوسات إلى قوي النفس الباطنة وكأنه قد ألقى في تيار هذا العالم بين اضطراب أمواجه. وليس له من نفسه ما يساعده علي العوم فيه، فإذا لم ترأمه أمه يهلك. وأول ما يبديه عند الولادة استهلاله بصياح يدل علي تألمه لتغير البيئة عليه، وملامسة الهواء جلده، ونفوذه إلى مسالك التنفس حتى أقصى حويصلاتها، وتأثير أشعة النور علي شبكيته إلى غير ذلك مما لم يألفه من قبل. وكأن المولود يشعر لساعته من وحشة يجدها لفراق وطنه الذي كان فيه، أو كأنه يشكو ضعفه في تنازع البقاء ومغالبة الطبائع، وفي ذلك مجال يتفسح فيه القول للفلاسفة والشعراء بالحكم. وما أحسن قول ابن جريح الرومي وقد ذكر هذه الحالة وما تأول به من لطيف الحكمة:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يوضع

وإلا فما يبكيه منها وإنما لأفسح مما كان فيه وأوسع

إذا عاين الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقى من أذاها يفزع[٢]

ثم أنه يكون في بدائة هذا الطور من حياته قاصرًا همه علي الغذاء والنوم، فلا يظهر من آثار قوى النفس حينئذ إلا الأعمال التي يسميها علماء المنافع (بالمنعكسة)، والفلاسفة (بالقوي البهيمية، أو الشهوية)، عن أن حاسة اللمس تكون موجودة؛ لأن الجسيمات والألياف العصبية تتكون في الشهر الخامس من الحمل، وتنمو نماءً سريعًا، فيبلغ وزن الدماغ عند الولادة ٣٨١ غرامًا، وفي السنة الأولي بعد الولادة ٩٤٥ غرامًا، وتظهر تلافيف الدماغ في الجنين منذ الأسبوع العشرين، وتزداد غورًا وامتدادًا بتقدم العمر، ومنذ ذلك الوقت تتعين المراكز العصبية التي ترد إليها المؤثرات الخارجية، وتصدر عنها الحركات المتساوقة. ولذلك كان مبدأ القوى النفسية ورسمها ظاهرًا منذ الولادة لما هو معلوم من أن أعمال العقل لا تقوم إلا بالمجموع العصبي، فقول علماء المنافع أنها موقوفة علي حركة الدقائق العصبية غير سديد؛ لأن بين حركة الدقائق والوجدان بونًا سحيقًا.

ومعلوم أن الإنسان في مبدأ الفطرة خالٍ من تحقق الأشياء، إلا أنه مجهز بآلات يدرك بها كيفياتها بما بينهما من المناسبات والمباينات، فينتزع المعلومات الصادقة المحققة. وهذه الآلات هي الحواس الخمس التي تنقل المحسوسات إلى

---

[٢] وتروي هذه الأبيات بثلاث قواف غير هذه: قيل في الأولى منها يولد, وفي الثانية أرغد, وفي الثالثة يهدد, فيكون فيها علي هذا نوع التخيير المشهور عند أهل البديع.

الحس المشترك، فيعرضها علي القوى العقلية، حيث يقع الإدراك، والتمييز، والحكم، والإرادة، وتصدر الأفعال المحركة وغيرها.

ولكل من هذه القوى مقر خاص في الدماغ يتعين بعد الولادة؛ إذ لا سبيل قبلها للتأثر بالمحسوسات الخارجية، فقد ثبت أن الحيوانات التي تولد عميًا كالكلاب لا يتعين مقر القوة المحركة في قشرة أدمغتها إلا بعد أن تبصر بثلاثة أيام، فالحركات التي تبديها قبل ذلك إنما تكون منعكسة مصدرها النخاع المستطيل لا الدماغ؛ لأنها غير خاضعة للإرادة، خلافًا للحيوانات التي تولد مبصرة كالخنزير، والقنفذ، فإن حركاتها تكون إرادية صادرة عن مقر معين في الدماغ، ينشأ حين الولادة باقتضاء المنفعة المترتبة عليه كما هو الحال في الأعضاء التي يتوقف وجودها علي عمل تنفعل به؛ إذ تكون المنفعة هي العلة الفاعلة في التكوين. ولا ينكر أن للإرث شأنًا في ذلك، فإن العضو يتهيأ بواسطته للعمل قبل أن يقع علي الحيوان تأثير من الخارج.

واللمس هو أول الحواس منشأ وأعظمها للحيوان نفعًا، وكثير من الحيوانات السافلة ليس لها من الحواس غيره. على أنه يظهر في النوع الإنساني في الشهر الخامس من الحياة الجنينية، ويكون أثريًا غير منتظم إلى ما بعد الولادة بشهرين، فيصير حينئذ وسيلة لإدراك أول ما يتهيأ للأطفال إدراكه من المحسوسات الخارجية.

وينشأ الذوق علي أثر نشوء اللمس؛ لأن الحاجة ماسة إليه منذ الولادة، فإذا أدخلت حينئذ أصبع إلى فم المولود مصها كأنه يحاول الرضاع، ثم يتبرم من ذلك بعد أيام كأنه قد شعر بالفرق بين الوهم والحقيقة. وإذا أعطي لبن البقرة غير محلى بقليل من السكر مجه، وذلك دليل علي سرعة نماء هذه الحاسة فيه. وبعد قليل يظهر تعلقه بمرضعته، وإذا أتي عليه شهران منذ ولادته لم يعد يطيق

استبدالها. وليس الأمر كذلك من قبل، علي أن هذه الحماسة تجلب للطفل لذة لا تجلبها حاسة أخري في بدء أمره.

والشم إنما ينشأ بعد نشوء الذوق بمدة، فهو متم له؛ إذ يكون وسيلة لمعرفة الطفل بمرضعته بعد شهرين من ولادته وقد روي أنه كان لداروين طفل يستروح أمه عن بعد ٨٠ ميليمترا، فيحدق ببصره إليها، ويحرك شفتيه طلبًا للرضاع.

ومعلوم أن طفل الإنسان يولد غير مغمض العينين، فإذا عرض للنور عند ولادته انقبضت حدقتاه، وطرف بجفنيه وهو دليل علي تأثر الشبكية، ولكنه في الحقيقة لا يبصر؛ لأن مقر البصر في الدماغ لا يتعين حينئذ، وإنما يتعين بعد الممارسة، والتكرار، وألفة الأشياء المبصرة علي التدريج حتى تظهر قوة التنبه عند نهاية الشهر الأول بعد الولادة. ولا مراء في أن حاسة البصر هي رائد العقل في إدراك المحسوسات؛ لأنها الوسيلة لإدراك الأبعاد ومعرفة السطوح، ولا يتهيأ ذلك إلا في الشهر الثاني، وهي تشترك مع حاسة اللمس في تمهيد السبيل لمعرفة الطفل باستقلال جسده عن الأجسام حوله.

أما حاسة السمع فتظهر في الطفل بعد ثلاثة أيام من ولادته، بدليل أنه يصيح للمناغاة، ويثور جأشة بالصخب. علي أنها أقل نماء من حاسة البصر لاقتصارها علي معرفة الأصوات.

وهنالك قوي نفسانية أخرى تظهر في الأطفال منذ نشأتهم، مصدرها الفطرة، وغايتها المحافظة علي البقاء، وليس بالخلق، والسليقة، والغريزة، وسماها الشهوية والبهيمية التماس المنافع ودر المضار.

ومنها التنفس: وهو أول تباشير الحياة، يظهر حال الولادة؛ إذ يباشر

الهواء جسم الطفل. والنوم، ويترجح حدوثه قبل الولادة، فيعلل به عن الفترة في حركات الجنين، وهو لا يستوقف قوى النفس؛ لأن بعض الأطفال تظهر عليهم ابتسامة في النوم كأنهم يرون رؤىً مفرحة، وبعضهم يحركون شفاهم للرضاع، وأحيانا ترى المقلة تتحرك تحت الجفون الوسنى. والغالب علي الأطفال النوم كثيرًا ولاسيما في النهار حتى يبلغوا اليوم العشرين من ولادتهم، فيقل بالتدريج بعد ذلك. ومنها الخوف، وهو في الأطفال مسبب عن أمور لا يكترث لها غيرهم: كالقماط، والغسل. والبكاء وهو لا يكون إلا بعد نشوء الغدد الدمعية عقب الولادة بعشرين يومًا، وما كان قبل ذلك فهو صياح وصراخ. والابتسام وهو لا يكون قبل الشهر الأول. والضحك وهو لا يظهر إلا بعد نهاية الشهر الثاني إلى غير ذلك. والطفل يبقى في أول أطوار الحياة مدة تحت ملكة الأفعال العصبية المنعكسة، وأحكام الغريزة لا يدرك من حقيقته ما يعرف به ذاتيته، ولا يميز بين جسم وآخر، فعمل حواسه أثري، ووجدانه مفقود إلى أن يصير قادرًا علي تحقق بعد الأجسام، واختلاف سطوحها بواسطة البصر، وذلك لا يتأتي له إلا عند نهاية الشهر الثاني من ولادته. ويستدل عليه في الأسبوع السادس بعد الولادة بحركة إرادية تظهر بتوجيه الطفل رأسه نحو أمه إذا سمع صوتها، فيتعلم ثمة أن يوجه عينيه نحو الأشياء المرئية، ويمرن علي ذلك إلى أن يصير قادرًا علي تسديد بصره، فتظهر حينئذ علامات التنبه في بدء نشأته.

ويصاحب نماء حاسة البصر علي ما تقدم ارتقاء حاسة اللمس، فالطفل في بدء حياته يمسك الشيء الذي يوضع في راحته بدون وجدان، فانقباض يده حينئذ إنما هو فعل عصبي منعكس غير خاضع للإرادة، ثم يصير بتكرار التجربة والممارسة عملاً إراديًا يصاحبه نمو الحس العضلي، فتظهر الحركات العضلية المتساوقة.

ومتى بلغ الطفل الشهر الثالث من عمره قويت حواسه علي تحقق المحسوسات، وخضعت الأفعال العصبية المنعكسة لسلطان العقل والإرادة، وانفتحت له أبواب الهداية بما يعرض عليه من المؤثرات التي يستفيد منها العلم بما يكون نافعًا، أو ضارًا، فيألف النافع وينفر من الضار، ولا تزال القوى العقلية تنمو بالممارسة والاكتساب طورًا فطورًا، والاستعداد الطبيعي يمهد أمامها سبل الارتقاء حتى تبلغ الشأو العجيب. ومن الغريب أن الإنسان في بدء أمره ينسى كثيرًا من الحوادث والآثار التي ترد عليه، فلا يحفظ منها إلا ما كان مفيدًا في أمر تنازع البقاء، ولذلك كانت الذاكرة ضعيفة في أول العمر.

ومعلوم أن هذه القوي تكون في الحيوانات غريزية في أصل فطرتها: فالفراخ مثلا تلتقط الحب حالما تقف، وجراء الكلاب تمشي عندما، تولد والمهر يستوي علي قوائمه حينئذ، والقرد يتسلق الأشجار بخفة منذ ولادته، ولكن ذلك فيها يقف عند درجة القوة البهيمية، فلا يتعداها إلى القوي السامية المميزة للإنسان وهي التي تدخل تحت الإرادة والعقل، وتأخذ في النماء والارتقاء منذ أول أطوار حياته علي ما تقدم بيانه حتى تبلغ فيه إلى درجة الكمال.